الفصل الثانى

يعقوب صروف فى عصره

١ ـ حياته

(١٨٥٢ ـ ١٩٢٧)

الدكتور يعقوب صروف ، علم من أعلام العلم والأدب والفلسفة والرياضيات كما سنرى ، جابت شهرته العالمين القديم والحديث ، ولد فى الحدث على مقربة من مدينة بيروت لبنان السنة الـ ١٨٥٢ ، وتعلم ككل لبنانى فى مدرسة القرية ثم انتقل إلى مدرسة عبيه الأمريكية ، ولما أسست الكلية الإنجيلية السورية السنة الـ ١٨٦٤ م وهى اليوم « الجامعة الأمريكية » انتظم فى سلك تلامذتها فكان من أفراد الرعيل الأول الذى تخرج منها يحمل درجة بكالوريوس علوم السنة الـ ١٨٧٠ [١] .

ولا ريب أن فى الحياة موجهاً يوجه الإنسان إلى العمل الذى يحب أن يملأه ، فكان واحداً من أولئك الذين أعدوا لأن يكون معلماً فى مطلع شبابه ، فعلّم فى مدارس صيدا وطرابلس لبنان وصافيتا مدة ثلاث سنوات ، وفى بدء السنة الدراسية الـ ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ دعته « الكلية » ليعلم فيها العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية وعلم الفيزياء . فانصرف إلى « الدرس والتدريس وقرن العلم بالعمل وجعل تلامذته يطبقون علم الهندسة وحساب المثلثات على مساحة الأراضى ويصنعون الآلات الطبيعية كلفائف الحدوة والأجراس الكهربية ، وكان ذلك دأبه وهو تلميذ ، فإنه صنع آلة تدور بالماء على مبدأ مطحنة " باركر " وهو يدرس

---

(١) راجع محاضرات الدكتور فؤاد صروف فى كتابه يعقوب صروف العالم والإنسان ـ نشر دار العلم للملايين ص ١٢ ومقال جبر ضومط : المقتطف مجلد ٧٢ ص ٢٨٧ .

علم السائلات ، فأخذها رئيس المدرسة وحفظها بين أجهزة الفلسفة الطبيعية ، وهي التي ذكّرته به حينما كانت المدرسة تبحث عن أستاذ لتدريس علم الطبيعيات »[١] . كما أنه درّس فيها اللغة والبيان فاستقامت لغته وعرف من أسرار اللغة ، حقيقتها ومجازها ما جعله حجة يؤخذ برأيه كما سنعرض إلى ذلك في حينه .

أما تحقيقه العلمي فقد كان مطبوعاً منذ صغره على حب البحث والتحقيق شأن العلماء الحقيقيين ، وربما قضى أياماً وأسابيع وشهوراً في سبيل درس مسألة علمية أو نظرة فلسفية أو معادلة كيماوية ، ليصل إلى الحقيقة المتوخاة . وكان في كل أبحاثه يرد المسببات إلى أسبابها نابذاً القشور بثاقب فكره غير حافل إلا بالباب[٢] .

وإن نحن نظرنا إلى باب الأسئلة والأجوبة في مجلدات المقتطف وما فيه من أجوبة سديدة في مختلف العلوم والفنون والحوادث والحالات ندهش مما وعى صدره من الحقائق والمعلومات وما كان عليه ذهنه من المضاء ، ونظره من صدق الحكم والاستنتاج ، وكان من أشد الناس كرهاً للخصام والشقاق وأقربهم إلى الصفاء والوفاق . ومع غزارة علمه وسعة اطلاعه لم يكن يعرف للفظ العداوة معنى ، ولا يدرك لكلمة الحقد مغزى ، وهذا ما يدلنا على سمو أخلاقه وجليل صفاته ، وكان يرى أن المرء ملتزم بأن يسدي المعروف والجميل ويبسط يد المعونة والإسعاف غير منتظر شكراً لأنه واجب إنساني .

٢ ـ آثاره

عرّب :

ـ كتاب سرّ النجاح لصموئيل جميلز الإنجليزي ، ففي تعريبه وتسميته وإضافة أشياء مهمة عن مشاهير العرب إليه ، براهين على ولعه بالتاريخ واحتفاله بتراجم المشاهير مما يدعونا إلى الاعتراف بأنه مؤرّخ ومؤرّخ صادق .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فليب طرازي ج ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧ ، ٤٢٠ .

ـ سير الأبطال القدماء والعظماء : عرّبه مع زميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ، وفى الكتاب تتجلى روحانية المترجمين وتمسكهما بالبرّ والفضيلة .

وضع :

ـ رواية فتاة مصر : وصف فيها تاريخ المجتمع المصرىّ فى مطلع القرن العشرين بعاداته وأزيائه وأحواله الاجتماعية والأدبية والمالية . طبعت ثلاث مرات .

ـ رواية أمير لبنان : فيها وصف للبنان فى العقد السادس من القرن الماضى ، استرسل فيها إلى ذكر ثورة سنة الستين الأهلية ومطامع الدول السياسية فيه .

ـ رواية فتاة الفيوم : رواية عصرية تصف حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية ومنزلتها التاريخية وآثارها النفسية .

ـ رجال المال والأعمال : وفيه الموضوعات الاقتصادية وترجمة الرجال العاملين العصاميين ، وصدق آرائه الصائبة فى هذا الفنّ الحيوىّ .

ـ الروّاد : ترجم لمشاهير المستكشفين فى القطبين الشمالى والجنوبى وفى صحراء أفريقيا وما قاسوه من أتعاب فى سبيل العلم والمعرفة .

ـ بسائط علم الفلك وصور السماء : وفيه أبحاث ضافية عن هذا العلم ونظرات صائبة مبرهنة بمعادلات رياضية .

ـ العلم والعمران : وفيه أحدث الآراء التى قالها العلماء فى مجمع تقدّم العلوم البريطانى .

ـ فصول فى التاريخ الطبيعى من مملكتى النبات والحيوان : وفيه وصف النبات على أنواعه ووصف الحيوان ، وتنازع البقاء بين المملكتين : النبات مع نوعه ، والحيوان مع نوعه .

ـ أعلام المقتطف : وفيه تاريخ رجال العلم والفلاسفة من سقراط إلى الأستاذ جاك لوب المتوفى السنة الـ ١٩٢٤ . ولا نكران على أن أبحاثه التى يخلد فيها

نجدها فى مجلدات المقتطف التى تعهدها بقلمه وفكره وعددها سبعون مجلداً صرف فى تدبيجها والإشراف عليها مدة اثنتين وخمسين سنة، وهى حافلة بالأبحاث العلمية والأدبية والفلسفية والتاريخية والاقتصادية والزراعية، عدا ما فى باب المسائل من فوائد قيمة ، وكلّ ما له علاقة بالعمران ؛ على أننى لم أقع على بحث واحد لا من قريب أو بعيد على بحث دينىّ مما أثبت لى أنه كان يتحاشى الخوض فى الأبحاث اللاهوتية أو ما يمسّ المعتقدات الدينية، بالرغم من أنه كان رجلاً مؤمناً بالله وبدينه المسيحىّ، يحترم العقائد ويرى أنها كلها طريق إلى الله تعالى .

٣ ــ أخلاقه [١]

من ذكريات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ما يصور لنا أخلاق الدكتور صروف وما كان عليه من التواضع ولين الجانب مع ما كان عليه من سعة العلم وأصالة المعرفة والفكر الصائب قال : « وهو لا يرى نفسه شيئاً وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً ، وكلما عجب الناس من سعة علمه عجب هو من كونه يرونه عالماً »[٢] فقد كان رحمه الله على جانب من التواضع واللطف وإنكار الذات يتحلى بسجية العلماء الحقيقيين من الوداعة والتحرج عن البت فى الأمور والجزم الذى يجزمه بعضهم كأن الحقيقة أصبحت فى جيبه، وكأنه لو ارتفع الغطاء لم يزدد يقيناً. كلا. لم يكن من هذا النمط بل كان مشربه أنه مهما كانت القاعدة العلمية نازلة منزلة الحقائق لا يتلقاها الإنسان إلا مع شىء من التحفظ يبقى معه الباب مفتوحاً لنظريات جديدة . وكان كثير التأنى والتروى قليل التسرع وأبعد الناس عن التهور »[٣] وكان متأنقاً فى مأكله وملبسه فما كان يمسك القلم ولا يدنو

---

(١) ملخص عما قاله فيه العلماء والأدباء فى الكتاب الذهبى .

(٢) المقتطف جـ ١ من المجلد ٧٣ ص ٨ . (٣) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

من المنضدة حتى يتزين بثيابه[١] ، وما كان يأكل إلا ما يسد الحاجة ، وفيه فائدة للجسم بدون شراهة ؛ وهو على الجملة كان عالماً وإنساناً وإليك ما قال عنه الأستاذ حنا خباز[٢] « — الدكتور صروف — هو فى الشرق، إحدى تلك الغوالى . فقد تشبث بالحقيقة إلى غاية ما يمكن لا تثنيه عنها لومة لائم، فلم يغش محبّ الحقيقة مصانعة . والنفس لا تحب الحقيقة إلى هذه الدرجة ما لم يكن رسم الحقيقة مطبوعاً على صفحاتها . ورسم الحقيقة على صفحات النفس هو الجمال الحقيقى الذى تهواه النفوس ، ولا نفس تهوى الحقيقة ما لم يكن لها فى ذاتها حقيقة . وشغف النفس بالحقيقة هو ظاهرة التفاهم بين النفس وبين الحقيقة » .

ومن مجمل ما قرأت وسمعت؛ فالدكتور صروف كان مثال الخلق الرضى ، أديب لوذعى ، فذ نزيه ، لين العريكة ، رصين ، غير مماذق ولا غماز لماز ، وكفى أن نقول : إنه أول من قال : « مناظرك نظيرك » وأثبتها فى مقتطفه شعاراً ، علّم وعمل بها ، يقر بالخطأ ويتمسك بالصواب غير هياب أو وجل ، وأما صفاته فتنبى عنه أخلاقه[٣] .

فشهادة رجال العلم والأدب « بيعقوب صروف » وسام صاغته الأيام ورصّعه العلم الصحيح ، والأدب الرفيع ، وعلّقه على صدره الخلق الرضىّ . والفكر النيّر ، والمحبة الشاملة ، والكلمة الصريحة التى لا تعرف للمواربة معنى ولا للمصانعة مبنى ، فقد عرف الحق الصراح ، والحق حرّره من كل عصبية . ورفعه إلى مستوى الرجال العاملين ، فى خدمة الفكر وتحرير العقول .

---

(١) رواية عيسى إسكندر المعلوف ، مجلة أكتوبر ٢٨ حزيران سنة ١٩١١ ص ٣١٨ .

(٢) المقتطف ج ١ من المجلد الثالث والسبعين ص ٤٣٧ .

(٣) المقتطف مذكرات الدكتور شخاشيرى المجلد ٧٢ من ج ١ ص ٢ — ١٢ .

٤ – تأثيره

إن العلوم الطبيعية قد تغلغلت إلى عقول الناطقين بالضاد بما كان ينشره على صفحات مجلته الخالدة « المقتطف » فقد أثرت تأثيراً كبيراً حتى أصبحت مرجعاً موثقاً يرجع إليها البحثة لتأييد فكرتهم . وكفى أنه تمكن من إزالة ما كان يتخبط به الشرق من أساطير وخرافات . وبين علاقة الإنسان بالطبيعة ؛ وقد كان غير واحد من أبناء هذا الشرق يزعم أن أسباب الأمراض إنما يعالجها بالرقى والتعازيم غير آبه بما قاله أبو الطب أبقراط منذ أجيال وأجيال . من أن السبب هو أمر طبيعي وقد برهن على ذلك فى كتابه « الأهوية والمياه والبلدان » وبصدد ما نحن فيه ننقل رأى الدكتور شبلى الشميل قال : « فدرس نواميس الاجتماع البشرى يجب أن يكون بدرس نواميس الحى نفسه ، ووضع نظاماته على نفس نظاماته . لأن الاجتماع البشرى نفسه ليس إلا جسما حيا أيضاً ، ولكنه حيوان هائل كما قال عنه المقتطف منذ سنين تعقيباً على بحث لى فى تاريخ الاجتماع الطبيعى نشر فى ذلك الحين »[1]. ولا يسعنا فى ختام هذا البحث إلا أن نقول مع إسماعيل مظهر : « إن اسم الدكتور يعقوب صروف ينزل من تاريخ الشرق منزلة الحركات الفاصلة فى تاريخ الفكر الإنسانى .

(١) كتاب « سنة المقتطف الذهبية » تأليف الدكتور شبلى الشميل ومحمد مظهر ونسيم مصر سنة ١٩١٠ ص ١٣ .